ابـــن عبـــد كـــان

وفـــن الرسائـــل فـــي مصـــر الطولونيـــــة

دكتـــــور

غريب محمـــــد علـــــى

أستـــاذ الأدب العربي المساعد

بكليـــة الآداب بقنـــــا ـ جامعـــة جنوب الوادي

ابن عبد كان
وفن الرسائل في مصر الطولونية

تقديم:

تدور هذه الدراسة حول أهم كاتب ظهر في مصر من الفتح الإسلامي إلى العصر الفاطمي، وهو ابن عبد كان: أول رئيس لأول ديوان إنشاء حقيقي في مصر الإسلامية.

والحق أن ديوان الإنشاء لم يقم على أسس راسخة في مصر إلا في العصر الطولونى على يد هذا الكاتب الذي يرجع إليه الفضل في ذلك؛ فهو أول من وضع للكتابة في مصر الإسلامية نظما ورسوما، ولم يظهر قبله كاتب مبرز في هذا المجال، كما لم يظهر بعده من الكتاب العظام أحد إلا في العصر الفاطمي.

وقد أشار بعض المؤرخين وكتاب التراجم إشارات طفيفة إلى هذا الكاتب ومكانته، كما أشار بعض الدارسين والباحثين إلى شئ يسير من ملامح طريقته،لكنهم لم يتوفروا على تحليل رسائله تحليلا نصيا أو دراستها دراسة أسلوبية فنية، واكتفوا بالإشارة إلى رسالة واحدة وهى رسالته التي بعثها على لسان أحمد بن طولون إلى ولده، وهى أشهر رسائل ابن عبد كان وأهمها وأكبرها، ومن خلالها ألمح هؤلاء الدارسون-في عجالة سريعة-إلى شئ من الخصائص الفنية التي تميز هذه الرسالة.

ومن ثم تتجلى أهمية هذه الدراسة فى إظهار السمات الفنية لطريقة ابن عبد كان في الكتابة من خلال أكثر من ثلاث وثلاثين رسالة ما بين ديوانية وإخوانية سواء في الجانب البنائى أم في الجانب الأسلوبي.

لقد أكسب ابن عبد كان الكتابة في مصر لونا ومذاقا خاصا، وارتقى بها إلى درجة جعلها تنافس الكتابة في بغداد بل ربما تفوقت عليها في

الوقت الذي شُغِل فيه كتاب بغداد بالصنعة،وجعلوها حِلْيـــة تقيـد كتاباتـــهم وتثقل كاهلها.

وكان طبيعيا أن تتعرض هذه الدراسة لفن الرسائل فـــي مصـــر قبـــل العصر الطولونى، وللتعريف بابن عبد كان، وتشير إلى قيام ديوان الإنشـــاء في ذلك العصر، والدور الذي اضطلع به ابن عبد كان في هذا الديـــوان، وأن تركز على أبرز الجوانب التي تميزت بها طريقته في الكتابة،تلـــك الطريقـــة التي كان لها أثر كبير في كُتّاب عصره وفيمن جاءوا بعده لفترة طويلـــة من الزمن.

إن فن الكتابة الحقيقي بنظمه وتقاليده وأسلوبه قـــد بـــدأ فـــي مصـــر الإسلامية بابن عبد كان ومن ثم فإن هناك واجبا علـــى دارســـي أدب تلـــك الفترة أن يستجلوا دور ذلك الكاتب وأن يـــبرزوا أثـــره فـــي فـــن الكتابـــة ويوضحوا سمات طريقته .

ومن ثم كانت هذه الدراسة.

فن الرسائل في مصر
قبل العصر الطولوني

عرفت مصر-قبل العصر الطولوني-ألوانا من النثر، وكان فن الرسائل على رأس تلك الألوان.

لكن القدر الذي وصل إلينا من هذا الفن كان قليلا في كمه، متواضعا في مستواه الفني إذا قيس بمستوى الكتابة في مشرق الدولة الإسلامية (الشام والعراق)، ولم تكن له تقاليد معينة أو رسوم خاصة يلتزم بها.

وقد ذهب د.محمد كامل حسين إلى هذا الرأي إذ بعد أن أشار إلى مفهوم النثر الفني بأنه "الكتابة الفنية التي يتعمد فيها الكاتب الأناقة في التعبير، ومحاولة السمو بالأسلوب إلى مستوى رفيع هو مستوى كتابة الطبقة التي نالت حظا كبيرا من الثقافات المختلفة، وظهر أثر خيالهم وعاطفتهم في كتاباتهم"[1] نجده يقول عن نثر هذه الفترة في مصر "لا نكاد نجد نثرا فنيا بالمعنى الذي ذهبنا إليه إلا فيما ندر"[2]

ويذهب د. شوقي ضيف إلى هذا الرأي أيضا إذ يقول عن الكتابة في هذه الفترة: "إذا أخذنا نبحث عن وثائق الكتابة الأدبية في مصر أثناء الفترة الأولى، نقصد فترة الولاة من عمرو بن العاص إلى أحمد بن طولون لم نكد نتبين شيئا واضحا"[3] ثم يقول: "لا نبعد إذا قلنا إن مصر لم تستولها صورة واضحة من الكتابة الفنية في عصر الولاة، غير أننا لا نصل إلى عصر ابن طولون... حتى نجد مصر تبدأ عصرا جديدا في تاريخ النثر الأدبي"[4]

---

(١)، (٢) الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، د.محمد كامل حسين/ صـ١٩٤-ط النهضة المصرية سنة ١٩٥٩م.

(٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي/د. شوقي ضيف، صـ٣٥٤ ط دار المعارف-ط عاشرة سنة ١٩٨٣.

(٤) المرجع السابق/ صـ٣٤٦.

ويقرر هذه الحقيقة أ. عبد الرزاق حميدة إذ يقول عن رسائل هذا العهد: "كانت ضعيفة، ولم يؤثر منها بعد زمن عمرو بن العاص إلا الذي أفلت فلحق بما بقى من رسائل الشام و العراق"[1]

ويلتقط د. إبراهيم السوقي هذا الرأي فيشير إلى أن "النثر في مصر في الفترة الأولى من عصر الولاة المنتهية بعام ١٣٢ كان زاهرا"[2] وأن فن الرسائل كان " أبرز ألوان هذا الضرب من النثر"[3] ولكنه يعود فيقرر أن الرسائل بعد عام ٤٣هـ كانت قليلة بالنسبة للفترة السابقة على هذا التاريخ، ويعلل ذلك قائلا: "ولعل ذلك راجع إلى أن عين التاريخ قد شخصت إلى مصر إبان الفتح ثم في أثناء الفتنة أشد مما شخصت إليها في العقود التالية من عصر الدولة الأموية[4]، ويذكر أن "ما بقى من رسائل المصادر بعد عام ٤٣هـ-إلى قلته-أقل بلاغة مما سبقه من الرسائل"[5] ومهما يكن من أمر فإن فن الرسائل-عامة-لم يكن مزدهرا في الفترة السابقة على العصر الطولونى إلا إذا استثنينا الفترة الأولى رغم ما يفهم من آراء بعض الباحثين والدارسين وإشاراتهم إلى وجود ديوان للرسائل في تلك الفترة[6]، وهذا الديوان يؤدى-بالضرورة-إلى نهضة الكتابة وازدهارها.

---

(١) الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى الفاطميين/عبد الرزاق حميدة، ص١٠٣،ط الأنجلو سنة ١٩٥١.

(٢) النثر العربي في مصر حتى نهاية العصر الأموي، د.إبراهيم السوقي/ ص٣ ط مركز جامعة القاهرة سنة ١٩٩٩

(٣) المرجع السابق صـ ١٥.

(٤) المرجع السابق. صـ٤١.

(٥) المرجع السابق .صـ٤٣.

(٦) انظر: "نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي" حيث يقول د. حسين نصار. إن "ديوان الرسائل ظهر في أوائل العصر الأموي في أيام معاوية بن أبى سفيان وتطور سريعا حتى انتشر في الولايات" ـ٦٨-ط٤ النهضة المصرية سنة ١٩٩٩ ويؤكد على هذا الرأي في بحث له بمجلة عالم الفكر بعنوان "أدب المراسلات في العصر الأموي" إذ يقول: "واستطعت بتحليل الأوصاف التي أطلقها الجهشيارى على بعض الكتاب أن استنتج أن معاوية بن أبى سفيان هو الذي أسس الديوان فيما أنشأه من دواوين إبان خلافته في دمشق ثم احتذته بقية الأقاليم في أزمنة مختلفة" عالم الفكر مجلد ١٤ عدد ٣ صـ٦٣٦ سنة ١٩٨٣م

-ويساير د. إبراهيم السوقى هذا الرأي قائلا: "لعل ولاة مصر الأمويين قد تأثروه على نحو ما فاتخذوا ديوان إنشاء ملحقا بديوان قائم، وعمرو بن العاص يشبه أن يكون قد اتخذ لنفسه ديوان إنشاء ملحقا بديوان آخر تصدر عنه رسائل يمليها هو أو يكل أمر إنشائها إلى غيره لأنها أقل خطرا" النثر العربي/ صـ٩

ويستند د. إبراهيم السوقي في ذلك على خبر أورده ابن عبد الحكم في "فتوح مصر" من أن "مجاهد بن جبر - وهو من الموالى- كان كاتبا مرموقا بمصر منذ أول عهد العرب بها" النثر العربي صـ٩.

-وتستدل د. سيدة إسماعيل الكاشف من خلال تدوين أسماء الكتبة الذين كانوا يحررون الرسائل على أنه كان "بمصر في ذلك العهد ديوا ن رسائل أو ديوان إنشاء" مصر في فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية/ صـ٣١ ط، سنة ١٩٩٤.

ولكن الشك يساورنا في وجود ديوان مزدهر قائم بذاته على فن الرسائل، لكننا لا نشك في وجود جذور له أو بدايات متواضعة، ولا نشك في وجود كتاب استعان بهم الولاة فى كتابه الرسائل منهم مجاهد ابن جبر كاتب عمرو بن العاص. (١)

ويشير الجهشيارى إلى مجموعة من هؤلاء الكتاب مثل: ينـاس بن خمايا الذي "كان يكتب لعبد العزيز بن مروان"(٢) ، ومثل بنى المهاجر وهم من عقب عبد الحميد الكاتب. وقد كانوا يسكنون مصر وكانوا يكتبون للحسين الخادم قبل قدوم أحمد بن طولون"(٣) .

ولعل السبب في قلة الرسائل وضعف مستواها الفني في تلك الفترة يعود إلى قلة انتشار اللغة العربية، فلقد كان التعامل بها في نطاق ضيق محدود، وربما يعود إلى عدم اهتمام المؤرخين بتدوين هذا الفن فضاع منه الكثير مما يجعلنا لا نستطيع أن نحكم حكما يقينيا على هذا اللون في تلك الفترة .

ولعل السبب أيضا يرجع إلى عدم اكتمال ديوان الإنشاء الذي يوظف فيه مجموعة من أرباب اللغة وأهل الفصاحة.

ولا يغفل في هذا الجانب أن "العرب في مصر كما كانوا في الحجاز والشام والعراق حديثي عهد بالكتابة، ليس لهم فيها نظام قديم ولا تقاليد سابقة"(٤) يسيرون عليها وبالإضافة إلى ذلك فإن تبعية مصر لسلطان

(١) يشير ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص قد استخلف هذا الكاتب على مصر حينما قدم على سيدنا عمر بن الخطاب فقد سأله سيدنا عمر من استخلفت؟ فذكر مجاهد بن جبر؛ فقال له عمر: مولى ابنة غزوان؟ قال نعم، انه كاتب، فقال عمر: إن القلم ليرفع بصاحبه" فتوح مصر ج ١ صـ٢٤٠ تحقيق عبد المنعم عامر/ط الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ١٩٩٩م.
(٢) الوزراء و الكتاب/ الجهشيارى/ تحقيق مصطفى السقا وآخرين/ صـ٣٤ ط٢ البابى الحلبى سنة ١٩٨٠.
(٣) انظر المرجع السابق/ صـ٨٢.
(٤) الأدب العربي في مصر/عبد الرزاق حميده/صـ٧٧.

الخلافة لم يجعل "للولاة سلطة تامة في شئون البلاد إلا بعد مراجعة مركز الخلافة"[١]

وهذه التبعية لم تهيئ لمصر " ظهور الكتاب فيها أو إقبالهم عليها"[٢]، وأدت إلى "انصراف الكُتّاب وغيرهم من أهل الأدب إلى حاضرة الدولة حيث العطاء الجزيل والمناصب الرفيعة، والشهرة الواسعة والحظ الباسم"[٣] والحق أن هذه الأسباب جميعا قد زالت في العصر الطولونى مما هيأ الأمر لازدهار هذا الفن.

(١) الحياة الفكرية/د. محمد كامل حسين/ صـ١٩٤/١٩٥.
(٢) الأدب العربى فى مصر/ عبد الرزاق حميدة/صـ١٠٣.
(٣) المرجع السابق/ صـ١٠٣.

ابن عبد كان

وديوان الإنشاء في العصر الطولوني

عمل أحمد بن طولون منذ أن تولى مصر سنة ٢٥٤هـ على أن تكون خالصة له من دون العباسيين، وما زال يعمل جاهدا من أجل هذا الهدف حتى تم له ما أراد، وقد هيأت له الظروف ذلك: فلقد كانت بغداد فى تدهور وكان الخلفاء العباسيون في فرقة وانقسام.

وبالإضافة إلى تلك الظروف فقد كان أحمد بن طولون طموحا صاحب شخصية قوية لها آمالها وأهدافها وتطلعاتها.

والحق إن إصلاح مصر كان من أهم أهداف ابن طولون، بل كان الهم الأكبر له حتى يزيد خيرها ويرفه حالها؛ فتقدمت الحضارة في عهده كما تقدمت في عهد أسرته، وصار لمصر مركز مرموق ومكانة علية.

وقد أدى ذلك إلى أن ينشط الأدب (شعرا ونثرا) ويزدهر، وكان ابن طولون نفسه بليغا يحب الأدب ويشجع الأدباء، وينفق عليهم بسخاء، حتى لقد التف حوله مجموعة كثيرة من الناثرين والشعراء الذين لا نجد لهم مثيلا في العصور السابقة[١].

وأدى ذلك كله إلى أن يتحول بلاط الطولونيين إلى بلاط أدبي كبير ينافس البلاط العباسي.

لقد كان لاستقلال أحمد بن طولون بمصر واتساع ملكه تأثير بالغ في نهضة الكتابة الفنية فلقد احتاج ابن طولون إلى من يدون له مراسلاته الكثيرة ويسجل له مكاتباته العديدة.

---

(١) ومما يدلنا على كثرة الشعراء في عصر ابن طولون ما رواه المقريزى عن القاضي ابى عمرو عثمان النابلسى في كتابه "حسن السيرة فى اتخاذ حصن بالجزيرة" قال " رأيت كتابا قدر اثنتي عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذي لأحمد بن طولون، قال فإذا كانت أسماء الشعراء في ثنتى عشرة كراسة كم يكون شعرهم؟" الخطط/ جـ٢، صـ١٢٤ ط مكتبة الآداب سنة ١٩٩٦.

وهذا الأمر لا يقتضى وجود كاتب بمفرده بل يقتضى وجود هيئة قائمة بذاتها، معروفة بلسنها وبلاغتها، فكان ديوان الإنشاء.

هذا سبب من الأسباب التي دفعت بابن طولون إلى إقامة هذا الديوان، ولا يستبعد أن يكون قد أنشأه ليباهى به دار الخلافة في بغداد، وقد ألمح محمود مصطفى إلى هذا قائلا: إن ابن طولون حينما أراد أن يجمع لمصر مظاهر النهضة وعناصر الاستقلال احتاج "إلى إيجاد ديوان للإنشاء على نمط نظيره في بغداد يختار له فضلاء الكتاب ويجعل عليهم رئيسا يحرص على أن تتوافر فيه الكمالات التي تلتمس في رؤساء هذا الديوان"(١)

لقد أنشأ ابن طولون ديوان الرسائل ورتبه ونظم أمره، واستقدم له كتابا أكفاء أوكل إليهم أمر كتابة الرسائل وإدارة شأن هذا الديوان وكان على رأس هؤلاء ابن عبد كان الذي كان أول من تولى رئاسة هذا الديوان الذي "لا يتولاه إلا أجل كتاب البلاغة"(٢)

ورغم شهرة ابن عبد كان ومكانته في عالم الكتابة فإن المصادر لم تقدم لنا شيئا يذكر عن حياته وأسرته ورحلاته وثقافته، وكل ما قدمته نتف قليلة لا تروى غليلا، بيد أننا نعرف من تلك النتف أن ابن عبد كان هو "أحمد بن محمد بن مودود المعروف بابن عبد كان"(٣)

ويستدل د. شوقي ضيف على أن الرجل من أصل فارسى من خلال تحليل هذا الاسم الذي عرف به إذ يقول: "يشهد اسمه بأنه فارسى الأصل؛ إذ

(١) الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الأيوبي/محمود مصطفى/ صـ١٣٤ ط وزارة الثقافة- دار الكاتب سنة١٩٦٧.
(٢) الخطط/ المقريزى/ جـ٢/ صـ٢٤٤.
(٣) انظر: الفهرست/ ابن النديم/ صـ١٦٩، ط دار المعرفة-بيروت سنة ١٩٩٤م، حسن المحاضرة/السيوطى/جـ٢، صـ٢٣٢ (ويذكر السيوطى أن ابن عبد كان هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود).

الكاف في الفارسية القديمة تدل على التصغير، والألف والنون على النسبة، فعبد كان يقابلها في العربية عبيدى"[1]

ولكن متى ولد؟ وأين عاش؟ وماذا عن أسرته؟ وما المناصب التي تقلدها قبل رئاسة ديوان الإنشاء بمصر؟

كل ذلك لا نجد له إجابة شافية، بل لا ندرى عنه شيئا، بيد أننا نعتقد أنه قضى شطرا من حياته في بغداد حيث العلم والثقافة والشهرة، وأنه تلقى ثقافة على شئ كبير من الاتساع؛ "لأن رجلا يشغل هذا المنصب الرفيع الذي شغله ابن عبد كان لابد أن يكون ملما بثقافة واسعة تؤهله لهذا المنصب[2]، وتتمثل هذه الثقافة في العلوم الدينية وعلى رأسها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والفقه، وتتمثل في علوم العربية وعلى رأسها النحو والصرف والبلاغة وفى علوم السيرة والتاريخ.

وإذا كانت المصادر قد سكتت عن ذلك كله فإنها أشارت إلى رسوخ قدمه وعلو مكانته في الكتابة، وقد قدم لنا أصحاب هذه المصادر شهادات حق وصدق دالة على تلك المكانة، فابن النديم-وقد وضعه في طبقات البلغاء-يقول عنه "كان متر سلا فصيحا، وله ديوان رسائل كبير"[3].

وأما القلقشندى فيذكر أن ابن طولون قد استكتب ابن كان فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره"[4]

ويقول في موضع آخر-عندما يتحدث عن حال الكتابة وديوان الإنشاء في العصر الطولوني وأمر الكتاب "وكان ممن أشتهر من كتابهم بالبلاغة

---

(١) عصر الدول والإمارات (مصر والشام) د. شوقي ضيف/ صـ٤٠٠/ ط دار المعارف سنة ١٩٨٤م.

(٢) في الأدب المصري الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين/ د. محمد كامل حسين/ صـ٩٢ طـ الاعتماد/ بدون تاريخ.

(٣) الفهرست/ ابن النديم/صـ١٦٩/ط دار المعرفة-بيروت ط/أولى سنة ١٩٩٤م.

(٤) صبح الأعشى/القلقشندى/جـ١١/صـ٢٩/ط وزارة الثقافة والأرشاد-مصر سنة ١٩٦٣.

وحسن الكتابة أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود بن عبد كان، كاتب أحمد ابن طولون، وكان مبدأ الكتاب المشهورين بها"[1]

ومما يدلنا على مكانة ابن عبد كان وتمكنه من فن الرسائل أن أهل بغداد - كما يذكر القلقشندى - كانوا "يحسدون أهل مصر على طبطب وابن عبد كان يعنى كاتب الإنشاء لابن طولون ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما"[2].

وثمة شهادة أخرى تدل على مكانة ابن عبد كان في فن الكتابة، وهذه الشهادة يقدمها لنا ياقوت في معجمه حينما يترجم للصاحب بن عباد إذ يقول "ورد إلى الصاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه: رسائل من تقرأ عندكم؟ فقال رسائل ابن عبد كان، قال ومن؟ قال: رسائل الصابى"[3] فالرجل هنا لا يقرن ابن عبد كان بالصابى فقط بل يقدمه عليه.

ولم يقتصر دور ابن عبد كان في ديوان الإنشاء على الناحية الإدارية وهى رئاسة هذا الديوان وإدارته وكتابة الرسائل ومراجعتها بل كان يقوم باختبار الراغبين في الالتحاق بالديوان، وكان قراره في هذا الأمر مأخوذا به دون مراجعة ومما يدلنا على ذلك أن بعض الكتاب العراقيين كانوا يأتون إلى مصر يبغون وظيفة في ذلك الديوان، ومن هؤلاء أبو يعقوب اسحق بن نصير البغدادي الذي قدم على ابن عبد كان يلتمس" التصرف فقال: ابن عبد كان: فيم تتصرف؟ فقال في المكاتبات والأجوبة والترسل وكان بين يدي ابن عبد كان كتب قد وردت فقال له: خذ هذه وأجب عليها، فأخذها ومضى إلى ناحية الدار فأجاب عنها فلما رآها وتأملها ألحقه وأجرى عليه أربعين دينارا في كل شهر فلم يزل معه حتى توفى ابن عبد كان"[4]

---

(١) صبح الأعشى/جـ١/صـ٩٥.
(٢) صبح الأعشى/ جـ٣/صـ١٣.
(٣) معجم الأدباء/ يا قوت الحموى/جـ٢ صـ٦٩٧/تحقيق د. احسان عباس ط أولى بيروت سنة ١٩٩٣.
(٤) معجم الأدباء/جـ٢ صـ٢٣٧.

ابن عبد كان
وفن الرسائل

لم يقف دور ابن عبد كان عند إدارة ديوان الإنشاء وتصريف أموره ورئاسته واختبار من يوظف فيه، بل كان له دوره الواضح وبصماته الجلية في فن الرسائل ذاته، ويكفى القول إنه انتقل بهذا الفن نقلة رائعة واسعة تجلت في عدة أمور : أهمها تلك النظم والرسوم التي صارت قواعد يحتذيها الكتاب لا في عصره فحسب بل في عصور تالية. كما تجلت تلك البصمات في ذلك الأسلوب وتلك الطريقة التي تميزت بخصائص فنية معينة لم تعرفها الكتابة في مصر من قبل، وبذلك ارتفع بفن الكتابة إلى مستوى يضاهى مستوى الكتابة في العراق والشام وغيرهما

ومن خلال استقراء ما يزيد على ثلاث وثلاثين رسالة وصلت إلينا مما سطره ابن عبد كان ما بين رسائل ديوانيه (رسمية) وإخوانية (اجتماعية) وهو قدر من الرسائل لم يصل إلينا من كاتب آخر من ذلك العصر ومن خلال إشارات القلقشندى إلى أبرز النظم والأصول التي اتبعها ابن عبد كان في فن الرسائل يمكن أن نتعرف على أهم الخصائص التي تميزت بها طريقته فى الكتابة،تلك الخصائص التي تعد سمات عامة لهذا الفن في العصر الطولونى، وهى على النحو التالي:

أولا- (الجانب البنائى)

ويتجلى ذلك فيما يلى

١ - الافتتاحيات (المطالع) :

أ-خلو المطالع من البسملة : فليس فيما وصل إلينا من رسائل ابن عبد كان الديوانية أو الإخوانية رسالة تبدأ بالبسملة، ولكن ليس معنى ذلك أن جميع رسائل ذلك العصر قد خلت من هذا اللون.

ب- افتتاح الرسائل الرسمية والإخوانية بعبارة " من فلان إلى فلان " وذلك كما يظهر في أشهر وأطول رسالة لابن عبد كان،وهى الرسالة التي كتبها " عن ابن طولون إلى ابنه العباس حين عصى عليه بالإسكندرية"[١]والتي يقول في مطلعها " من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه العاصي لربه ....."[٢]

ويلاحظ هنا أن ابن عبد كان قد يقرن الاسم بالصفة أو اللقب ، وقد يغفل ذكر الاسم ويعمد إلى الصفة مباشرة وذلك كما نرى في بداية رسالة إخوانية يقول فيها " من صريع الشوق إليه، وأسير الرقبة عليه"[٣]

جـ - لا يخلو مطلع الرسالة الرسمية من إلقاء السلام، فلقد أتبع ابن عبد كان عبارة" من فلان إلى فلان" بقوله:" سلام على كل منيب،مستجيب، تائب من قريب"[٤]

د- افتتاح ما يكتب في الولايات " بلفظ إن أولى كذا" أو " إن أحق كذا " وما أشبه ذلك "[٥]وذلك مثل قوله في العهد الذي كتبه عن ابن طولون يقول فيه " إن أحق من آثر الحق وعمل به ....."[٦]

هـ - اشتمال المطلع في الرسالة الرسمية على حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله، وهذا ما يظهر في قوله في الرسالة نفسها بعد إلقاء السلام" ..... وأحمد الله الذي لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء الجميل .... وأسأله مسألة مخلص في رجائه.. أن يصلى على محمد المصطفى وأمينه المرتضى ....."[٧]

---

(١) صبح الأعشى /جـ٧صـ٥
(٢) صبح الأعشى /جـ٧،صـ٥
(٣) صبح الأعشى جـ٨/صـ١٦٦
(٤) سيرة ابن طولون صـ٢٦٠
(٥) صبح الأعشى /جـ١١،صـ٢٩
(٦) صبح الأعشى /جـ١١،صـ٢٩
(٧) صبح الأعشى /جـ٧ ،صـ٦

و- اشتمال المطلع في الرسالة الرسمية على عبارة " أما بعد"[١]

ز- افتتاح الرسائل الإخوانية (الاجتماعية) بأحد أسلوبين هما:

١-بلفظ" كتابي أو كتبت[٢]وذلك مثل قوله في إحدى رسائله " كتابي إليك وأنا استعتب الأيام فيك.؛[٣]وقوله في رسالة أخرى " كتبت وأنا حنين الصبابة إليك ....."[٤]

٢-أو بالدعاء. وقد كان هذا غالبا على كتابهم كما يذكر القلقشندى وكان لكتاب الدولة الطولونية وعلى رأسهم ابن عبد كان أنماط وصيغ متعددة في الدعاء، وقد ذكر القلقشندى من هذه الأنماط سبعة عشر نمطا، وبعض هذه الأنماط مخصص لحالة واحدة أو لشخص معين لا يصلح لغيره ، كالدعاء للمسافر أو الحاج أو المريض أو الوالي.

وذلك مثل الدعاء للمسافر - في إحدى رسائله- إذ يقول " جعلك الله في حفظه وكنفه، وأحاطك بحيطته وجعل سفرك أيمن سفر عليك"[٥]

ومثل الدعاء للمريض بالعافية من المرض إذ يقول " مسح الله ما بك وعاد بالبر عليك وعجل الشفاء لك ....."[٦]

ومثل الدعاء بكبت العدو حيث يقول فيه " مكن الله يدك من ناصية عدوك بالصولة عليه، ومن زمام وليك بالإحسان إليه"[٧]

---

(١) صبح الأعشى /جـ٧، صـ٦ .
(٢) صبح الأعشى /جـ٨/صـ١٦٤
(٣) صبح الأعشى جـ٨،صـ١٦٤.
(٤)صبح الأعشى جـ٨،صـ١٦٤.
(٥) صبح الأعشى / جـ٨/صـ١٦٣.
(٦) صبح الأعشى / جـ٨ / صـ ١٦٣.
(٧) صبح الأعشى / جـ٨،صـ١٦٢.

ومثل الدعاء في الاضحية بقبول النسك إذ يقول " جعلك الله بقبول النسيكة والقربان فائزًا بالأجر والرضوان"[١]

ومعنى ذلك أنه كان يراعى - وهو الكاتب الماهر- مواقع الدعاء في مكاتباته ويعرف الدعاء المناسب لكل واحد من أرباب المناصب الجليلة فيختصه به وهذا من أهم الأصول التي كان يعتمدها الكاتب في المكاتبات كما يذكر القلقشندى [٢]

وكان يتجنب في الدعاء عبارة " جعلني الله فداك وذلك لما فيها "من التصنع والملق الذي لا يرضاه السلطان؛لأن نفس الداعي لا تسمح باستجابته"[٣] ويستدل القلقشندى على ذلك بقول ابن عبد كان " جعلت فداك على الصحة والحقيقة لا على مجرى المكاتبة ومذهب العادة"[٤]

فهو يتجنب تلك العبارة، ولكن إذا لجأ إلى استخدامها أبدى إخلاص النية وصدق الطوية، وذلك كما يظهر في دعائه السابق، وكما يظهر في قوله في رسالة أخرى " جعلني الله فداك.دعاء أخلصته النية، وصدقته الطوية[٥]

ح- قد تفتتح المكاتبة بأسلوب آخر مثل الخطاب بـ " أنا" وذلك مثل قوله " " أنا من جملة صنائعك"[٦]

ط- وأما مطالع الأجوبة فيذكر القلقشندى أنها تبدأ كما تبدأ رسائل المرسل منه أو تبدأ بقولهم" وصل كتابك" وذلك كما كتب ابن عبد كان " وصل كتابك

(١) صبح الأعشى /جـ٨/صـ١٦٤
(٢) ذكر القلقشندى في المقالة الرابعة فى المكاتبات عشرة أصول كان يراعيها الكاتب الماهر وانظر ذلك جـ٦ صـ ٢٧٤ وما بعدها
(٣) (٤) صبح الأعشى /جـ٦، صـ٢٩٠.
(٥) صبح الأعشى /جـ٨/صـ١٦١.
(٦) صبح الأعشى /جـ٨،صـ١٦٥.

فدفع تباريح الشوق"[1] وكما كتب أيضا " وصل كتابك المصدر بجواهر لفظك وبدائع معانيك ومحاسن نظمك"[2]

٢- الجانب الموضوعي :

يختلف موضوع كل رسالة عن الأخرى وذلك حسب مقام المرسل إليه وحاله وحسب الموقف الذي تتطلبه الرسالة .

ولكن يلاحظ أن الرسائل الرسمية إما أن تكون تهديدا أووعيدا أو نصحا أو تكون عهد أمان أو معاهدة صداقة أو إرشادا أو توبيخا وتقريعا أو إشارة إلى تنظيم أمر من أمور الدولة.

فهي على أيه حال مراسلات سياسية تتصل بشئون الدولة وتهتم بأمور الحكم غالبا

أما الرسائل الإخوانية فهي تدور حول موضوعات اجتماعية من تهنئة وشوق وعتاب ولوم ووداع وشكر وغير ذلك

٣- الخواتيم :

جاء بعض رسائل ابن عبد كان السياسية (الرسمية) مختتمة بالسلام وجاء بعضها خاليا من ذلك .

ومن الرسائل التي اختتمت بالسلام رسالته التي كتبها على لسان ابن طولون إلى ولده إذ جاء في آخرها قوله "والسلام على من سمع الموعظة فوعاها وذكر الله فاتقاه إن شاء الله تعالى"[3]

وأما الرسائل الإخوانية فإنها كانت تختتم عنده باستماحة الرأي بلفظ " فإن رأيت" أو بلفظ"فرأيك" وهذا ما نراه في رسالتين لكاتبنا

---

(١) صبح الأعشى /جـ٨، صـ١٦٥.
(٢) صبح الأعشى /جـ٨،صـ١٦٥.
(٣) صبح الأعشى /جـ٧،صـ١٠ ، وقد ورد في سيرة ابن طولون بيدا النص " والسلام على من سمع الوعظ فوعاه وذكر الله فاتقاه" صـ ٢٦٤.

أوردهما القلقشندى يقول في إحداهما " فإن رأيت أن تأتى فيه مؤتنقا"[1] ويقول في ختام الثانية " فرأيك في ذلك بما تقضى به الحق وتصل به الذمام "[2]

الجانب الأسلوبي:

الأسلوب هو الطريقة التي يتبعها الكاتب في عرض أفكاره وصوغ مشاعره، وهو الوعاء الذي يصب فيه آراءه، ويكشف به عن عالمه الخاص إنه كما يقول ابن خلدون: "المنوال الذي ينسخ فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه"[3] المعنى، وهو-كما يقول-أحمد الشايب: "طريقة الكتابة أو طريقة الإنشاء أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها والتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير"[4]

وطبيعي أن يختلف الأسلوب من كاتب إلى كاتب، ويختلف تبعا لاختلاف الموضوع والموقف وثقافة الكاتب نفسه.

ولعل أهم الجوانب الأسلوبية التي يمكن أن نقف عندها في رسائل ابن عبد كان ما يأتى:

أولا:الكلمة:

من المعلوم أن الكلمة هى اللبنة الأولى التي يتكون منها الأسلوب، والوحدة الأساسية التي تتألف منها الجمل والعبارات والتراكيب، وكلما كانت الكلمة مختارة اختيارا دقيقا، معبرة عن المعنى المقصود، آتية في موضعها، غير قلقة، موحية بما يريده الكاتب، دالة على أفكاره، موافقة لقواعد اللغة كلما كان الأسلوب أفضل وأجمل وأقوى، وقد أشار البلاغيون

(١) صبح الأعشى / جـ٨،صـ١٦٦ .
(٢) صبح الأعشى /جـ٨، صـ١٦٦.
(٣) مقدمة ابن خلدون-ابن خلدون، صـ٤٢٠-ط دار ابن خلدون-الإسكندرية-بدون .
(٤) الأسلوب-أحمد الشايب/صـ٤٤/ط النهضة المصرية ط٩ سنة ١٩٩٥م.

والنقاد إلى الشروط التي يجب أن تتوافر في الكلمة [1] وهى معظم الشروط التي المشار إليها سابقا.

إن " العمل الأدبي - كتكوين عقلي - يخرج في صورة مادية مكونة من ألفاظ متسقة تؤدى معنى عاما أو غرضا خاصا، وتتمثل هذه الصورة في الذهن ثم يرمز لها باللفظ اللائق[2]

وإذا كان د. محمد عبد المطلب قد أشار إلى ذلك ورأى أن العمل الأدبي يخرج في صورة مادية ، وقد تمثلت هذه الصورة في الذهن قبل أن يرمز لها باللفظ فإن ابن خلدون قد سبق إلى ذلك حين قال . في أثناء حديثه عن الأسلوب - إنه " يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها فى الخيال كالقالب والمنوال ثم ينتقى التراكيب الصحيحة "[3]

إن كل كلمة في العمل الأدبي لا بد أن يكون لها وظيفة وإيحاء معين ، ودلالة خاصة لا تؤديها كلمة أخرى لو وضعت موضعها ، ولا تستطيع الكلمة المستبدلة أن تعبر عن المعنى الذي تدل عليه الكلمة الأصلية تعبيرا دقيقا .

والحق أن ابن عبد كان قد اهتم اهتماما بالغا باختيار الكلمات اختيارا دقيقا ، واستطاع أن ينضدها تنضيدا، ويجعلها معبرة عن المعنى تعبيرا يدل

---

(١) انظر :-المثل السائر/ابن الأثير ،جـ١ صـ١٤٩ وما بعدها / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد /ط١ العصرية بيروت ط ١٩٩٠.
ـ الإيضاح / القزوينى / صـ٣ وما بعدها ،ط صبيح سنة ١٩٦٦.
ـ الطراز العلوى /ج٣،صـ٢٢٣، ط العلمية بيروت ١٩٨٢.

(٢) جناية الإفراد والتركيب / د. محمد عبد المطلب / صـ ٨٥، ط١ سنة ١٩٩٥ لونجمان ـ الشركة العالمية للنشر.

(٣) مقدمة ابن خلدون / صـ ٤٢٠

على مهارة بارعة، ولا غرابة في ذلك فهو الأديب المـــاهر المتمكـــن مـــن ناصية اللغة الخبير بأساليبها وكلماتها .

ومما يدلنا على ذلك - على سبيل المثال . قوله في رسالة إخوانيـــة: "وإنما يفدى مثلك بالأنفس"[1]، فلقد اختار الأنفس ولم يختر المـــال أو شـــيئا آخر؛ لأن النفس أغلى من كل شئ وأعز، وحينمـــا يكـــون الإنســـان علـــى استعداد لأن يفدى غيره بنفسه فهذا دلالة على مقدار الحب الذي يكنه لمـــن يفديه، ومن ثم اتبع الكاتب كلمة الأنفس بقوله إنها هي "التي أنفـــس مـــن الدنيا وأعرض من أقطار الأرض"[2]

ومثال ذلك أيضا قوله في الرسالة التي بعث بها على لسان أحمد بـــن طولون لابنه

" والعساكر بحمد الله قد أتتك كالسيل في الليل " [3] فلقد استخدم كلمة الليـــل ولم يختر النهار؛ لأن السيل غالبا ما يكون كثيرا منـــهمرا بـــالليل حيـــث لا شمس طالعة وحيث الحرارة أقل

وهكذا نجد كاتبنا دقيقا في اختيار كلماته، موفقا غاية التوفيق بـــل إن كل كلمة لتشع وتوحى بمعان - وهى في مكانها الذي تخيره لها ولا تستطيع كلمة سواها أن تؤديها ولا أن تدل الدلالة التي توحـــي بـــها تلـــك الكلمـــة المستخدمة وبالإضافة إلى ذلك فإن من يقرأ رسائل الرجل يجد كلماتها قـــد توافرت فيها شروط فصاحة الكلمة فلا غرابـــة ولا حوشـــيه ولا تقعـــر ولا نشوز وقد راعى بذلك الشروط التي أشار إليها النقـــاد والبلاغيـــون فـــي فصاحة الكلمة .

(١) صبح الأعشى ، ج٨ صـــ ١٦١.
(٢) صبح الأعشى جـــ٨ صـــ١٦١.
(٣) سيرة أحمد بن طولون /صـــ٢٦١.

ثانيا:- الجمل والعبارات:

وكما اهتم ابن عبد كان باختيار الكلمة المفردة فقد اهتم بتركيب جمله وعباراته فجاءت منسابة في سهولة ويسر لا ثقل فيها ولا تنافر خالية من الأخطاء النحوية، واضحة معبرة عن المعاني التي يريد أن يبرزها أصدق تعبير.

لقد نسق جمله وعباراته،وألف بينها تأليفا دقيقا بحيث لا نجد فيها قلقا أو خللا ، بل حسن صياغة ودقة اختيار وقد راعى بذلك ما أشار إليه الجرجانى في قوله " إن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك"(١)

وقد اتخذت الجمل والعبارات عند كاتبنا أشكالا متعددة وظواهر أسلوبية ولعل أهم هذه الظواهر الأسلوبية ما يلى :

١- البديع :

من الظواهر اللافتة للنظر فى رسائل ابن عبد كان وجود بعض من الألوان البديعية، ولكن يجب أن نلاحظ - منذ البداية - أنها جاءت خفيفة مقبولة لا تثقل كاهل الكتابة ، ولم يكن ابن عبد كان متصنعا او متكلفا فيها، ومن أهم تلك الألوان ما يلى.

أ- السجع:

عنى ابن عبد كان بالسجع ولكن سجعه كان مقبولا غير ممجوج، ولقد أشار إلى هذه الظاهرة كل من د. محمد كامل حسين، ود. شوقي ضيف.

---

(١) دلائل الإعجاز /عبد القاهر الجرجانى /صـ٤٦ /تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا ط٦-صبيح سنة ١٩٦٠ وانظر ايضا المرجع نفسه /صـ٤٦ - بقراءة وتعليق محمود محمد شاكر- ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ط سنة ٢٠٠٠م.

يقول د. محمد كامل حسين عن جمل ابن عبد كان:" أما جمله فقصيرة يزينها بالسجع غالبا" [1] ويقول د. شوقي ضيف " سجعه خفيف "[2].

لقد جاء السجع في رسائل ابن عبد كان حلية خفيفة ، لا يجور به على المعاني وإنما يحمل به الأسلوب تجميلا، وهذه ميزة عامة تميزت بها رسائل ذلك العصر في مصر ، فلقد كان كتاب تلك الفترة أقل اهتماما بالسجع الذي أثقل كاهل الكتابة في مشرق الدولة الإسلامية آنذاك.

والحق أننا لا نستطيع الادعاء بأن بن عبد كان قد اتخذ السجع مذهبا من مذاهب الكتابة، وإنما جاء به تزيينا لطيفا، وتنغيما موسيقيا ممتعا يؤدى بالقارئ إلى الاستمتاع والارتياح، وهو لا يأتى به في جمله كلها ، وإنما يأتى به في بعض الجمل.

والجمل المسجعة عنده قد تكثر أحيانا فتصل إلى خمس جمل ، ولكنها تقل - في كثير من الأحيان فلا تزيد غالبا على جملتين أو ثلاث، ويغلب عليها القصر.

وإن شئنا فلننظر إلى قوله:" فاختال زاهيا، واستكبر عاليا، وغدر باغيا وشاق عاصيا، وأوضع في الفتنة لنا حربا، ولأعدائنا حزبا، ولمن انحرف عنايدا، ولمن مال إلينا ضدا"[3]

ويظهر مثل ذلك السجع الخفيف في قوله:" فإنا قلدناك جسيما، وحملناك عظيما، وتبرأنا إليك من وزره وإصره، واعتمدنا عليك فى توخى الحق وإصابته ، وبسط العدل وإفاضته"[4]

(١) في الأدب المصري الإسلامي /د. محمد كامل حسين / صـ٩٥.
(٢) عصر الدول والإمارات مصر والشام /د.شوقي ضيف / صـ٤٠١
(٣) صبح الأعشى /جـ٨/ص٢٥٤
(٤) صبح الأعشى /جـ١١/ صـ٣٢.

ب-الازدواج :

الازدواج لون بديعى تظهر فيه قيود السجع، وهو كما يعرفه أسامة بن منقذ:"أن تزاوج بين الكلمات والجمل بكلام عذب وألفاظ عذبة حلوة"[١] ويرى البلاغيون أنه" لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا "[٢]

وهو يأتى للموازنة بين الجمل ، ولإحداث تنغيم جميل في العبارة.

وإذا كان السجع من الألوان البديعية التي عنى بها ابن عبد كان فجاء في المرتبة الأولى استخداما في رسائله فإن الازدواج يأتى في المرتبة الثانية إذ يلاحظ أنه إذا ترك السجع " فإلى الازدواج "[٣]كما يذكر د.شوقي ضيف.

وإذا كان السجع قد جاء في تلك الرسائل خفيفا فإن الازدواج قد جاء سهلا مقبولا سمحا وأن كليهما- السجع والازدواج-قد أتيا خاليين من التعسف بريئين من التكلف.

وعلى أية حال فإن الطابع العام في رسائل ابن عبد كان هو " الترسل السهل غير المقيد إلا قليلا بسجعه طارئة أو ازدواج سمح " [٤]

ومعنى ذلك أن كاتبنا يهتم بالنواحي الموسيقية حيث ينسق العبارة وينضد ألفاظها تنضيدا معتمدا" دائما على الملاءمات الصوتية وكأنما كان أساس الكتابة في رأى ابن عبد كان هو الموسيقى وإحسانها، وقد طبعت هذه الموسيقى أسلوبه بطابع خاص من الترادف حتى يلاحم بين أصواته من جهة، وحتى يحدث ما يريد من سجع وازدواج من جهة أخرى "[٥]

---

(١) البديع في نقد الشعر/ أسامة بن منقذ/صـ١١١ تحقيق د. احمد أحمد بدوى،د. حامد عبد المجيد /ط البابى سنة ١٩٦٠.

(٢) الصناعتين / أبو هلال العسكري/ صـ ٢٦٠/ تحقيق على محمد البجاوى ، محمد أبو الفضل إبراهيم /ط العصرية بيروت سنة ١٩٨٦.

(٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي/د.شوقي ضيف / صـ٣٥٠.

(٤) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية /د. مصطفى الشكعة / صـ٥٠٦/ط الانجلو سنة ١٩٦٨.

(٥) الفن ومذاهبه فى النثر العربى /صـ٣٥٠.

ومن أمثلة الازدواج الذي وقع في رسائله قوله" إما سعيدا بعمله، وإما شقيا بسعيه"[١]وقوله" صراطا مستقيما، ونورا مستبينا[٢]وقوله: "منفقين فيك كل مال خطير، ومستصغرين بسبك كل خطب جليل"[٣]وقوله " وغدر لا ينتعش صريعه، وكفران لا يودى قتيله" [٤]

ومن الملاحظ أن الازدواج قد جاء في رسائل ابن عبد كان خاليا من العيوب كالتجمع والتطويل .

جـ -الجناس:

أبى ابن عبد كان إلا أن يكمل تلك النغمة الموسيقية العالية في رسائله، وأبى إلا أن يتم صورة التنغيم في عباراته فاستخدم الجناس إلى جوار السجع والازدواج.

ومن أمثلة الجناس في تلك الرسائل قوله"لحظك ولفظك"[٥]وقوله "تسببا منسيا"[٦]وقوله" أنا المعروف بمعروفك"[٧] وغير ذلك،ولكن هذا الجناس لا يصل إلى درجة الازدواج والسجع استخداما فهو يأتى في مرحلة تالية لهما.

ومعنى ذلك كله أن ابن عبد كان قد عنى عناية واضحة بالناحية الصوتية في رسائله إذ جعل جمله منغمة تنغيما موسيقيا جميلا ما بين سجع وازدواج وجناس،وأحداث بتلك المقاطع الصوتية المتتالية انسجاما وتوازنا في تلك الجمل مما جعلها تتهادى في غاية من الرقة والعذوبة، وكأنما هي لحن موسيقى عذب شجى يتهادى إلى الآذان فيشنفها، ويتسلل إلى القلوب فتستريح له النفوس .

---

(١) صبح الاعشى/جـ١١/صـ٢٩.
(٢) صبح الاعشى / جـ١١/صـ٣٠.
(٣) صبح الأعشى/ جـ٧/صـ٦.
(٤) صبح الاعشى/ جـ٧/صـ٦.
(٥) صبح الأعشى/ جـ١١/صـ٣٠.
(٦) صبح الأعشى/جـ٧/صـ٦.
(٧) صبح الأعشى / جـ ٨ / صـ١٦٥.

ثانياً : الصورة:

جاءت الصورة وسيلة من الوسائل الأسلوبية التي استعان بها ابن عبد كان على إظهار المعاني وتجسيدها ، وتجلية الأفكار وتوضيحها ، وإبراز المشاعر واستجلائها، واهتم بها اهتماما بالغا حتى لقد صار جانب التصوير سمة من سمات الكتابة عنده كما يشير إلى ذلك د. شوقي ضيف[1]

وقد كان التشبيه والاستعارة والكناية أبرز وسائل هذا التصوير الفني الذي لجأ إليه بن عبد كان،ولا أود أن أعرف بهذه الألوان البيانية أو أذكر أنواع كل منها ؛ فكتب البلاغة والنقد حافلة بذلك، وإنما أود أن أشير إلى مدى استخدام ابن عبد كان لها ودلالة بعضها.

وقد جاءت الاستعارة أكثر تلك الوسائل التصويرية استخداما في رسائل كاتبنا، وكانت المكنية منها أكثر أنواعها دورانا.

ولا عجب أن يلجأ ابن عبد كان إلى استخدام الاستعارة أكثر من التشبيه فهو الكاتب الماهر الذي يعرف ما للاستعارة من قيمة ودقة ودلالة ويعرف أنها أرقى من التشبيه بطبيعة الحال.

ومن الاستعارات الواردة في إحدى رسائله قوله الموجه على لسان أحمد ابن طولون لابنه المنشق عليه" والمكروه قد أحاط بك"[2]

فلقد شبه المكروه بسياج قوى متين أو بسيل عرم قد أحاط بالابن من كل جانب فتقطعت به أسباب النجاة فلا يستطيع ذلك الابن انفلاتا أو فكاكا .

ومثل هذه الاستعارة اللطيفة قوله في نسخة العهد التي كتبها عن ابن طولون لأحد القضاة الذين تولوا برقة " شممت منه حيفا[3]حيث شبه الظلم بشيء له رائحة تشم وحذف هذا الشيء المشموم وأتى بصفة من صفاته

(١)الفن ومذاهبه في النثر العربي / صـ ٣٥٠.
(٢) سيرة أحمد بن طولون /صـ ٢٦١.
(٣) صبح الأعشى /جـ ١١/صـ ٣١.

وأسندها للحيف ، وفى هذه الاستعارة ما فيها من اللطافة والدعوة إلى أن يكون القاضي فطنا ذكيا منتبها حذرا لماحا يعرف أحوال حاشيته وتصرفاتها وعليه بمجرد أن يشعر بشيء من الظلم قد وقع من أحد حاشيته ولو كان يسيرا أن يصرفه عن عمله وينحيه عن منصبه؛ ولذلك يقول الكاتب في بقية العبارة " ومن شممت منه حيفًا في حكمه.....تقدمت في صرفه"[١]

ومن الاستعارات الدقيقة عنده أيضا قوله في رسالة إخوانية :

" وصل كتابك فدفع تباريح الشوق، وقمع كآبة البين، وأطفأ لهيب الحرقة، وبرد حر الصبابة"[٢]

ففي كل جملة من هذه العبارة استعارة لا يخفى ما فيها من دقة المعنى وروعة التصوير.

وأما التشبيه فإنه يأتى في المرتبة الثانية استخداما بين ألوان البيان في رسائل ابن عبد كان ، والملاحظ أن الكاتب لا يراوح كثيرا بين أنواع هذا اللون البياني إذا يغلب عليه استخداما التشبيه المرسل المجمل وذلك مثل قوله" فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها"[٣]وقوله" والعساكر بحمد الله قد أتك كالسيل في الليل "[٤]وقوله" يخرج من دنياه كخروجه من بطن أمه"[٥]

ولكن مع ذلك لا نعدم وجود التشبيه البليغ وذلك مثل قوله " هو شفاء لما في الصدور"[٦]

(١) صبح الأعشى / جـ١١/ صـ٣١.
(٢) صبح الأعشى /جـ٨/صـ١٦٤.
(٣) سيرة ابن طولون / صـ٢٦٠.
(٤) صبح الأعشى/ جـ٧/ صـ٩.
(٥) صبح الأعشى /جـ١١/صـ٣٠.
(٦) سيرة ابن طولون / صـ٢٦١.

وتأتى الكناية في المنزلة الثالثة استخداما بين وسائل التصوير في رسائل كاتبنا.

وفى هذا الجانب نلاحظ استخدام " الكناية عن صفة " اكثر من استخدام الكناية عن موصوف والكناية عن نسبة، وذلك كما نقرأ في قوله" أعطى الحقوق وأخذها"[1]الذي يكنى به عن العدل، وقوله" لم نر الموعظة تلين كبدك"[2] كناية عن التمادي في الغى والضلال والقسوة، وقوله" لا تنكر الفواضل محله"[3] كناية عن سمو المنزلة وعلو المكانة وكثرة الخير والعطاء.

ثالثا : التأثر بالقرآن الكريم :

القرآن الكريم هو النبع الثر، والمعين الذي لا ينضب، وهو أول ما كان يتلقاه طلاب العلم من الثقافة في العصور السالفة، وأهم مصدر من مصادر تلك الثقافة، وهو العدة التي كان يتجهز بها الكتاب ويتسلحون وكان أهم مؤهل يحملونه ليلتحقوا بديوان الإنشاء.

ومن ثمة فلا غرابة أن يتأثر به كاتبنا وهو رئيس ديوان الإنشاء فيقتبس منه ويضمن ويتخذ من آياته ما يزخرف به أسلوبه وينمق به عباراته ويحلى به جمله.

ومن ذلك اقتباسه الآية القرآنية التي يقول فيها عز وجل :" ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض "[4]واقتباسه الآية القرآنية التي يقول فيها سبحانه وتعالى" كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى"[5]

---

(١) صبح الأعشى/جـ١١/صـ٢٩.
(٢) صبح الأعشى /جـ٧/صـ٦.
(٣) صبح الأعشى / جـ٨/صـ١٦٠.
(٤) سورة الشورى/آية ٢٧،وقد جاءت هذه الآية في رسالته في ذم الخلاف.
(٥) سورة العلق/آية ٦،٧وقد جاءت هاتان الآيتان في رسالته في ذم الخلاف أيضا.

وكذلك اقتباسه الآية القرآنية التي يقول فيها رب العزة:" قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون"(١)

ومن التضمين قوله" كنت نسيا منسيا"(٢)الذي يتأثر فيه بقول الله عز وجل" ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا"(٣)

وقوله " ويجعل دائرة السوء عليك"(٤)الذي نحس أن وراءه قول الله سبحانه وتعالى" الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء"(٥)

وثمة مواضع أخرى كثيرة – في رسائله– نجد ه متأثرا فيها بأسلوب القرآن الكريم وآياته الجليلة .

رابعا : التقديم والتأخير:

تنبه النحاة والبلاغيون إلى هذه الظاهرة، ورأوا أن لها آثارا دلالية هامة، فحينما نقدم ما حقه التأخير فإن ذلك يكون لعلة ما كالتأكيد والتنبيه وبيان الأهمية والاختصاص والحصر وغير ذلك .

ومعنى هذا أن التقديم والتأخير الذي يحدث في الجملة ليس الهدف منه مجرد نقل الكلمات من مكانها، وإنما له هدف معين ودلالة خاصة.

وقد قسم ابن الأثير باب التقديم والتأخير إلى ضربين:[الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو أخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى، والثاني يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أخر لما تغير المعنى.(٦)

---

(١) سورة النحل/ أية ١١٢، وردت هذه الآية في رسالته الموجهه على لسان احمد بن طولون إلى ابنه .
(٢) صبح الأعشى /جـ٧/صـ٦.
(٣) سورة مريم / آية ٢٣ .
(٤) صبح الأعشى /جـ٧/صـ٨.
(٥) سورة الفتح / آية :٦.
(٦) المثل السائر/جـ٢صـ٣٥.

وأورد العلوي صورا لما يجب تقديمه وصورا لما يجوز تقديمه، وأشار إلى أن هناك خمس صور لما يجب تقديمه ولو تأخر لفسد المعنى وهي تقديم المفعول على فعله، وتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم الظرف، وتقديم الحال، وتقديم الاستثناء، وذكر عند كل صورة العلة من وراء ذلك(١)

وإذا ما جئنا إلى رسائل ابن عبد كان وحاولنا البحث في جملها عن التقديم والتأخير فإننا سنراه يؤثر التقديم في بعض المواضع وذلك مثل قوله"ففي إطالته حياة الأنام"(٢)حيث قدم الخبر على المبتدأ، ومثل قوله: " فإن في ذلك شرفا"(٣)وقوله:" وإن مما زاد في ذنوبك عندي ما ورد به كتابك على"(٤)وقوله" فإن في رفقنا بك ما يعطفك إلينا ، وفى تأخينا إياك ما يردك علينا"(٥)

والملاحظ أن كاتبنا لا يستخدم صورا كثيرة للتقديم وإنما يستخدم تقديم الخبر على المبتدأ كثيرا، وأما الصور الباقية فلا يستخدمها إلا قليلا بل نادرا ملحا في ذلك على دلالة التخصيص والتأكيد .

وهناك إلى جانب هذه الأنماط الأسلوبية أنماط أخرى في رسائل ابن عبد كان مثل أسلوب التوكيد والجمل الإعتراضية والاستفهام، ولكنها لا تظهر بمثل هذه الأنماط الأسلوبية التي أشرت إليها .

(١) انظر/ الطراز جـ٢/صـ٦٥ - ٧٣
(٢) صبح الأعشى /جـ٨/صـ١٦٠.
(٣) صبح الأعشى /جـ٨/صـ١٦١.
(٤) +صبح الأعشى /جـ٧/صـ٨.
(٥) صبح الأعشى / جـ٧/صـ٩.

الخاتمة

١- تهتم هذه الدراسة بأبرز كتاب مصر الإسلامية من الفتح الإسلامي إلى العصر الفاطمي، وهو ابن عبد كان أول زعيم لديوان الإنشاء الذي تأسس في العصر الطولونى .

٢- تشير الدراسة إلى عدم وجود ديوان إنشاء حقيقي له أسس راسخة ونظم واضحة ومعالم بارزة قبل العصر الطولونى.

٣- تكشف الدراسة عن منزلة ابن عبد كان وقيمة نثره الفني .

٤- يدلنا هذا البحث على قيمة النثر العربي في مصر وأنه لم يكن بأقل من نظيره في مشرق الدولة الإسلامية؛ وذلك بفضل ابن عبد كان الذي ارتقى به رقيا ملحوظا.

٥- تدعو الدراسة إلى ضرورة الاهتمام بالنثر في مصر الإسلامية إلى جانب الاهتمام بالشعر .

٦- تكشف الدراسة عن طريقة ابن عبد كان في الكتابة ؛ فقد استطاع أن يضع لها نظما ورسوما فى المطالع والخواتيم، وأن يجعل لها أسلوبا مميزا (كلمة وعبارة وتركيبا وبديعا وتصويرا) .

٧- إذا كانت هناك مقولة شائعة تشير إلى أن الكتابة في الأدب العربي قد فتحت بعبد الحميد وختمت بابن العميد فإن فن الكتابة في مصر الإسلامية قد بدأ بابن عيد كان أول الكتاب العظام ، صاحب التأثير القوى فيمن أتى بعده لفترة طويلة وانتهى بالقاضي الفاضل وتلميذه ابن عبد الظاهر .

ثبت بالمصادر والمراجع والدوريات

أولا : المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى العصر الأيوبي:

أ- محمود مصطفى / ط- وزارة الثقافة - دار الكاتب سنة ١٩٦٧.

٣- الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي إلى الفاطميين :

أ- عبد الرزاق حميدة /ط الانجلو سنة ١٩٥١م.

٤- الأدب في موكب الحضارة الإسلامية :

د. مصطفى الشكعة /ط - الأنجلو سنة ١٩٦٨م

٥- الأسلوب :

أ- أحمد الشايب /ط النهضة المصرية سنة ١٩٩٥م

٦- الإيضاح في علوم البلاغة:

الخطيب القزوينى /ط - صبيح سنة ١٩٦٦م

٧- البديع في نقد الشعر:

أسامة بن منقذ / تحقيق د.أحمد أحمد بدوى ، د. حامد عبد المجيد / ط البابى الحلبى سنة ١٩٦٠

٨- التلخيص في علوم البلاغة :

الخطيب القزوينى/ ضبط وشرح أ. عبد الرحمن البرقوقى / نشر دار الكتاب العربي بيروت سنة ١٩٣٢.

٩- جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم :

د. محمد عبد المطلب /ط - أولى - لونجمان - سنة ١٩٩٥.

١٠- حسن المحاضرة :

السيوطى / ط١- عيسى البابى الحلبى سنة ١٩٦٧.

١١- الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الطولونية

د. محمد كامل حسين / ط - النهضة المصرية - سنة ١٩٥٩.

١٢- الخطط :

المقريزى /ط مكتبة الآداب سنة ١٩٩٦.

١٣- دلائل الإعجاز:

عبد القاهر الجرجانى / تصحيح وتعليق السيد رشيد رضا - ط صبيح سنة ١٩٦٠، ونسخة أخرى / تعليق محمود محمد شاكر /ط الهيئة المصرية العامة سنة ٢٠٠٠.

١٤-سيرة أحمد بن طولون :

البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد) تحقيق وتعليق : محمد كرد على /ط الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ١٩٩٩م

١٥- صبح الأعشى :

القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) /ط وزارة الثقافة والارشاد القومي - بدون.

١٦- الصناعيين :

أبو هلال العسكري / تحقيق : على محمد البجاوى ، محمد أبو الفضل إبراهيم /ط العصرية بيروت سنة ١٩٨٦.

١٧- الطراز :

العلوى (يحيى بن حمزة) ط -دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٩٨٢.

١٨- عصر الدول والإمارات (مصر والشام):

د. شوقي ضيف /ط دار المعارف سنة١٩٨٤

١٩-فتوح مصر والمغرب :

ابن عبد الحكم/ تحقيق عبد المنعم تامر/ط الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ١٩٩٩.

٢٠- الفن ومذاهبه في النثر العربي

د.شوقي ضيف / ط١٠ - دار المعارف سنة ١٩٨٣

٢١- الفهرست :

ابن النديم /ط دار المعرفة - بيروت -ط أولى ١٩٩٤م

٢٢- في الأدب المصري الإسلامي من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين :

د. محمد كامل حسين/ ط الاعتماد - بدون

٢٣- المثل السائر :

ابن الأثير / تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط العصرية بيروت سنة١٩٩٠.

٢٤- مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية :

د. سيدة إسماعيل الكاشف / ط٢ سنة ١٩٩٤.

٢٥- معجم الأدباء:

ياقوت الحموى/ تحقيق د. إحسان عباس/ ط أولى - بيروت سنة ١٩٩٣.

٢٦- مقدمة ابن خلدون :

عبد الرحمن بن خلدون / ط دار ابن خلدون - الإسكندرية ـ بدون .

٢٧- النثر العربي في مصر حتى نهاية العصر الأموي:

د. إبراهيم الدسوقى /ط مركز جامعة القاهرة ـ سنة ١٩٩٩.

٢٨- نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي:

د. حسين نصار / ط ٤ النهضة المصرية سنة ١٩٩٩.

٢٩- الوزراء والكتاب :

الجهشيارى/ تحقيق: مصطفى السقا وآخرين /ط٢ - البابى الحلبى ١٩٨٠م.

ثانيـــاً - الدوريـــات :

٣٠- (عالم الفكر) العدد٣- مجلد ١٤- ١٩٨٣

أدب المراسلات ! فى العصر الأموي - د. حسين نصار